د محمد كريم

توجهات الشعر العربي
وأزمة المتلقي المعاصر

شهدت ساحة الأدب العربي منذ أواخر العقد الخامس من هذا القرن — العشرين — حركة الشعر الحر ، وكانت هذه الحركة نتاج المحاولات بدأت بواكيرها في مصر على يد بعض الشعراء أمثال أحمد زكي أبو شادي ومحمود حسن إسماعيل ، وعلي أحمد باكثير ، وذلك في العقد الثالث من القرن نفسه ، ثم تطورت في العراق على يد نازك الملائكة بقصيدتها « الكوليرا » التي نشرتها عام ١٩٤٧ م ، وبدر شاكر السياب بديوانه « أزهار ذابلة » وكان قد نشر في العام نفسه ، ومن العراق انتشرت في في سائر البلدان العربية .

والمتتبع لميلاد هذه الحركة يدرك بسهولة ويسر أنها صادفت — منذ الوهلة الأولى — قبولا وترحابا من بعض الشعراء ، والمتشاعرين الذين يرون في كل جديد متنفسا لعجزهم ، وامتداداً لتطفلهم على ساحة المبدعين في ميدان الشعر ، دون نظر إلى ماتحمله دعاوى التجديد من مقومات البناء والتشييد أو عوامل الهدم والتدمير .

وفي الوقت نفسه تعرضت هذه الحركة لحملة عنيفة من الشعراء الذين تمسكوا بالهيكل التراثي للشعر العربي — وهم ماسوف يعرفون في هذا البحث « بالعموديين » — فراحوا يوجهون لها سهام النقد للتهوين من شأنها دون هوادة ، وكيف لا يتأتى منهم مثل هذا وقد رأوا فيها ما عدوه دخيلا على الشعر العربي ، ووافدا لتراثنا ومقومات لغتنا ؟

وها هو ذا علي الجارم يترجم عن هذه الأحاسيس الثائرة تجاه حركة

الشعر الحر وأنصارها — وكان فى مقام الرثاء لشوقى وحافظ فى ذاكرهما عام ١٩٤٧ م فيقول(١) :

أسمعونا برغمنا فصبرنا ثم ثرنا غيظا على الآذان
جلبوا للقريض ثوبا من الغر
ب ولم يجلبوا سوى الأكفان
ثم قالوا : مجدودن فأهلا بصناديد أخريات الزمان
لاتثوروا على تراث امرىء القيـ
ـس وصونوا ديباجة الذبيانى
واتركوا هذه المعاول باللـ ـه فإنى أخشى على البنيان
ما لسان القريض من عربى
كلسان القريض من طمطمانى
إنما الشعر قطعة منك ليست من دماء اللاتين واليونان

وها هو ذا هاشم الرفاعى يهون من شأن هذا اللون من الشعر ومن يهتفون به إلى حد السخرية ، وذلك لأن هذا اللون من الشعر — كما يرى — يفتقد الأصالة والجلال اللذين يدفعان الزمن إلى الافتتان والإعجاب به وذلك فى قوله(٢) :

أيها الهاتفون بالشعر حرا ولكم دعوة به طنانة
قد أتيـــتم بنهج غريب يفرض اليوم بينكم سلطانه
ثم قلتم من الحيـاة كلاما
ومن الواقـــع استمد كيانه

---

(١) مجلة الكتاب أكتوبر ١٩٤٧ م
(٢) مع الشعراء المعاصرين فى مصر عبد الحى دياب : ص ٧٠

ليس شعرا وإنما هو شيء فوقه الشعر رتبة ومكانة
ذهبت عنه روعة للحون برهف الدهر عندها آذانه
إن أبصر الحياة سقيما
حاملا في يمينه أكفانه

وعلى هذا النحو من النقد والتهوين من شأن الشعر الحر وشعرائه سار العموديون من الشعراء دون مواربة أو تحفظ وبخاصة في السنوات الأولى من عمر هذه الحركة .

وبدلا من أن يتسلح شعراء هذه الحركة ومتشاعروها بالحكمة والتريث في مواجهة ثورة العموديين إلى أن تتضح معالم حركتهم وتتجلى مراميها راحوا يزينون لأنفسهم القدرة على النيل من مقومات الشعر العمودي، بحجة أنه جد من التجارب البشرية والحضارية ما لا يستطيع الشعر العربي بقالبه الموروث ، وقيمه الفنية والجمالية المتعارف عليها أن يتمثلها ويتسع صدره لها ، وذلك على نحو قول أحد شعرائها(١) :

إن هموم الإنسان المعاصر بوجدانه المرهق في ساحة يستغرقها الصراع الدائب في شتى الميادين لا تجد إلا الشعر الحديث — الحر — كعبير ومرفأ في وقت واحد ذلك أن طبيعة هذا الشعر بنزوعها المتطور والمتواصل إلى التحرر من قيود الشعر القديم إنما تقترب من هموم الإنسان المعاصر في حياته المعقدة بحضارة القرن العشرين ، هذا الإنسان المتخم بتجارب مريرة والمتداخلة في نسيجه الخاص ، وبالتالي فإن الشعر الحديث ببنائه الدرامي، وصوره التركيبية ، وتداخل أصواته ، وتلاحم موتولوجه الداخلي والخارجي ، وقدرته على احتضان اللغة الجديدة ، كل هذا يؤهل الشعر

---

(١) أدباء الجيل يتحدثون : ص ١٨٦ .

الحديث لكى يكون وحده و بلامنازع الترجمة المعمارية الوجدانية لمواصفات العصر والصوت الأمين لمعاناة الإنسان .

وكان بالإمكان ألا يفسد الخلاف بين الطرفين للود قضية ، وأن يصلا إلى كلمة سواء ، تحفظ للشعر سلطانه على وجدان المتلقى الذواقة .

ولكن كان العكس ، إذ رفع كل من الطرفين — إلا قلة واعية شقت طريق المجد والتفوق بشعرها وشاعريتها فاحتلت مكانة مرموقة فى دنيا الشعراء الناهين — شعار الاستدبار .

فاستدبر العموديون الحاضر بآلامه وآماله ، ومؤثراته فى وجدان المتلقين ، وراحوا يجترون معانى الماضين وصورهم وأخيلتهم لذاتها لا للاستعانة بها فى تصوير الحاضر ومعايشتهم له ، وكأنهم جعلوا من قول ابن قتيبة(١) .

وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فيقف على منزل عامر ، ويبكى عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل فيصفها ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجز الطوامى ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والورد والآس ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرار — نهجا يسيرون عليه ، والتزاما يبالغون فى التمسك به ظنا منهم أنهم بهذا الصنيع سيحققون لشعرهم الذيوع ولأنفسهم الخلود .

وباسم الحساسية الشعرية الجديدة استدبر التفعيليون — إن صح هذا الإطلاق — التراث الشعرى غافلين عما فيه من قيم أصيلة تتصل بالموسيقى والتعبير والتصوير ، تساهم مساهمة فعالة فى صقل المواهب الشعرية ودفعها إلى الابتكار والتجويد .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ص ٧

ونسى أو تناسى كل من العمودين والتفعيليين أن العملية الشعرية . كى تؤتى ثمارها الطيبة لا بد لها من استنطاق الماضى بقيمه وروائعه ، لكن ليس لذاته وإنما للاتكاء عليه واستلهامه فى تصوير الحاضر بأبعاده المتنوعة، وتحقيق ظاهرة التأثر والتأثير فى الإبداع الشعرى ، وهى — فى تقديرى — تشبه إلى حد كبير من حيث الضرورة تأثر الإنسان ببنى جنسه لتستقيم له أمور الحياة فى شتى مظاهرها ، ولا يقف هذا التأثر على المعاصرين له وإنما يتجاوزه إلى الماضين عن طريق تتبع آثارهم ، وكلما اتسعت دائرة تتبعه لآثار الماضين وسلوك المعاصرين كانت أمور الحياة أمامه أكثر استقامة واعتدالا . وبخاصة إذا رزق الطموح وحب التفوق .

والمتتبع لشعر الشعراء وأقوالهم منذ العصور الأولى للشعر يتبين له صحة ما نميل إليه .

وها هو ذا طرفة بن العبد يصف الأطلال بالوشم فى قوله :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد
تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

فيأخذه زهير بن أبى سلمى فى قوله :

ودار لها بالرقمتين كأنها
مراجع وشم فى نواشر معصم(١)

وفى قول امرىء القيس :

كأنى لم أركب جواداً للذة
ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل
لخيلى : كرى كرة بعد إجفالى

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى د/شوقى ضيف : ص ١٩

نجد التأثر بالبيتين واضحا فى قول عبد يغوث بن وقاص :

كأنى لم أركب جواداً ولم أقل
لخيلى : كرى نفسى عن رجاليا
ولم أسبأ الزمن الروى ولم أقل
لأيسار صدق : عظموا ضوء ناريا(١)

ومما حكاه مروان بن أبى حفصة، وهو من الشعراء الأمويين قوله(٢)

دخلت أنا وطريح بن إسماعيل الثقفى ، والحسين بن مطير الأسدى فى جماعة من الشعراء على الوليد بن يزيد ، وهو فى فرش قد غاب فيها ، وإذا رجل عنده كلما أنشد شاعر شعراً أوقف الوليد بن يزيد على بيت من شعره، وقال : هذا أخذه من موضع كذا و كذا من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعر ، فقلت من هذا ؟ فقالوا : حماد الراوية .

وها هو ذا أبو هلال العسكرى أحد أدباء القرن الرابع الهجرى — وكان قد عرف بنظمه للشعر — يقول(٣) ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم . ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم ، ويبرزوها فى معارض من تأليفهم ، ويوردوها فى غير حليتها الأولى ، ويزيدوها فى حسن تأليفها . وجودة تركيبها ، وكمال حليتها ومعرضها ، فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها ، ولولا أن القائل يؤدى ما سمع لما كان فى طاقته أن يقول ، وإنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين .

---

(١) السرقات الأدبية د/ بدوى طبانة : ص ١٥١

(٢) الأغانى ، دار الكتب، جـ ٦ ص : ٧١

(٣) الصناعتين لأبى هلال العسكرى : ص ١٩٦

لذا لم يكن عجبا أن يؤدى هذا النسيان أو التناسى من قبل العموديين والتفعيليين إلى تردى شعر العموديين فى الدرك الأسفل من التبعية القاصرة لأشعار الماضين أو التبعية العمياء لتوجهات الشعر الحر وتجاوز الأمر حد التبعية إلى انصراف بعض العموديين إلى الشعر الحر رغبة فى تسليط الأضواء عليهم من قبل الإعلاميين المروجين له ولتوجهاته التى تذكرنا بما كان عليه الشعر فى عصور انحطاطه .

ولعل من أبرز هذه التوجهات تلك المبارزة النزائفة فى اختراع الأشكال ، — وكأنها قد أصبحت واجبا يوميا لدى شعرائه الذين يتصورون أنهم سيلحقهم العار إذا لم يوضعوا فى صفوف الرواد المجددين حتى يضمنوا لهم مكانة مرموقة فى تاريخ الأدب ، وحتى لا يقال : إنهم أقل من غيرهم موهبة ، ولعل هذا هو ما جعلنا الآن نفتقد الصدق فى قصائد كثيرة ، ولعل آفة اقتعال التجديد قد أدت إلى الإفراط فى التركيز على الشكل وحده دون الاهتمام بالمضمون مما يدفع إلى القلق الشديد ، لأن ما يعطى لعصور الانحطاط سمتها البارزة هو الإفراط فى الزخرفة الشكلية(١) .

وليت الأمر يقف عند حد التوجه إلى المبارزة الجوفاء فى تعدد الأشكال — على حساب المضمون — وإنما تجاوزه إلى الغموض والمبالغة فيه ، حتى ليخيل للمتلقى الذواقة أن الشعر لم يعد إلا تجاورا الألفاظ متباعدة فى معانيها متنافرة فى مراميها ، فلا وشائج تربطها ببعضها ولا صلات — أيا كان نوعها — تسوغ لها هذا التجاور والتلاحم الشكليين .

ومثل هذا التوجه نجده كثيرا فى الشعر الحر ، وسنكتفى بذكر نموذجين على سبيل المثال والتدليل لا الحصر والاستقصاء .

---

(١) أدباء الجيل يتحدثون : ص : ١٦٤

وهاهو ذا مقطع « مرآة الحلم » من قصيدة — مرايا وأحلام حول الزمان المكسور — للشاعر السورى / على أحمد سعيد « أدونيس » يقول(١) :

حذيه ، هذا حلمى ، خيطيه والبسيه .

غلالة ، أنت جعلت الأمس .

ينام فى يدى .

يطوف بى ، يدور كالهدير .

فى عربات الشمس .

فى نورس يطير .

كأنه يطير من عينى .

ويلوح لى أن أى إنسان مهما كان حظه من الثقافة والتذوق وحدة القريحة لايمكن بأى حال من الأحوال أن يعثر على أى نوع من الدلالات أو الإيحاءات فى مثل هـــذه الصور المعقدة ، مهما أجهد نفسه وكد خاطره .

ومن هذا القبيل ما جاء فى قصيدة « تطوحات عمرى » من ديوان — شهادة البكاء فى زمن الضحك — للشاعر المصرى / محمد عفيفى مطر(٢) :

---

(١) الآثار الكاملة ، المجلد الثانى: ص: ٣٥٣

(٢) الزهور — ملحق الهلال — أغسطس ١٩٧٦م : ص ٣٠

أشعر أننى أدين للهواء بالثمر الذى ينضج فى حنجرتى الملتهبة .

أشعر بالدماء ترضع من عناصر الأرض وزرقة السماء .

وفى فقار الظهر انحناءة .

فى الضلوع .

أشعر بالدموع .

والعرق الذى تسفحه السواعد المغتصبة .

أشعر بالزرع فى جسدى تصرخ فى غرابة الجزاء .

أدين حينما أفصح فى الأسئلة البريئة .

للغة الخبيثة .

أدين بالولاء .

الشمس والكواكب المحتجبة .

والجسد النسيئة يسألنى فى الصبح والمساء .

عند موسم الوفاء .

ورد ما أحمله من الودائع الملتهبة .

ومن الغموض إلى التشاؤم حيث نراه يمثل توجهـــا شعريا واضحاً .

القارىء لديوان الشعر الحر يجد كثيراً من دعاوى اليأس .

والقنوط ، وتصوير الواقع بما يعوق مسيرة الإنسان ، وتطلعه إلى غد أفضل .

وها هو ذا مقطع من قصيدة — مذكرات الصوفي بشر الحافي — للشاعر صلاح عبد الصبور — أحد رواد هذه الحركة الشعرية — يشكو من ضياع القيم الإنسانية الرفيعة .

فلم يعد هناك مجال للإنسان الإنسان بينما اتسع المجال للإنسان الثعلب ، والإنسان الكلب ، والإنسان القرد ، والإنسان الأفعى ، وهى نوعيات لا تؤمن إلا بشعار الغلبة للأقوى ، ذلك لأننا نعيش فى زمن غير إنسانى .

« إنه اليوم الثامن من أيام الأسبوع الخامس فى الشهر الثالث عشر » وقد أتت هذه الشكوى على لسان شخصية متخيلة «بشر الصوفى» ، وذلك فى صورة حوار متخيل بين بشر وشيخه «بسام الدين» الذى يحاول تهدئة خاطره ، وبث الأمل فى نفسه ولكن دون جدوى ، لأن الشيخ لو نزل إلى دنيا الواقع « السوق » لتبين له صحة شكواه ، وذلك على هذا النحو (١) .

شيخى بسام الدين يقول(٢) :

« يا بشر اصبر
دنيانا أجمل مما تذكر
ها أنت ترى الدنيا من قمة وجدك
لا تبصر إلا الأنقاض السوداء »

(٢،١) ديوان « أحلام الفارس القديم » نقلا عن مجلة إبداع - ربيع أول لسنة ١٤٠٦ هـ : ص : ١٨

ونزلنا نحو السوق أنا والشيخ .

كان الإنسان الأفعى يجهد أن يلتف .

على الإنسان السكركى .

فمشى من بينهما الإنسان الثعلب .

نزل السوق لإنسان الكلب .

كى يفقأ عين الإنسان الثعلب .

ويدوس دماغ الإنسان الأفعى .

واهتز السوق بخطوات الإنسان الفهد.

قد جاء ليبقر بطن الإنسان الكلب

ويمص نخاع الإنسان الثعلب .

يا شيخى بسام الدين .

قل لى : « أين الإنسان الإنسان ؟» .

شيخى بسام الدين يقول :

« أصبر سيجىء » .

سيهل على الدنيا يوما ركبه ؟

يا شيخى الطيب

هل تدرى فى أى الأيام نعيش ؟

هذا اليوم المو بوء .

هو اليوم الثامن

من أيام الأسبوع الخامس .

فى الشهر الثالث عشر .

الإنسان الإنسان عبر .

من أعوام .

ومضى لم يعرفه بشر .

حفر الحصباء ونام .

وتغطى بالآلام .

ومن الزمن اللاإنسانى إلى زمن النكرات الذين يعبثون بكل مظاهر الحياة والأحياء ، وذلك فى قصيدة « العرض الأسود » للشاعر محمد سعد بيومى ، ومما جاء فيها (١) :

زمن النكرات افترس التربة .

أشعل فى الأرواح غيوما .

غطى الأرض طعانا وجراحا .

أيدى النكرات مدربة ، تلهو بالحارات .

وتبطش بالضحكات ، تمد خطاها للبذرات .

وتخطف كل الثمرات .

ومن زمن النكرات إلى الزمن اللغز غير المفهوم ، مما دفع الإنسان إلى أن يحيا فى مراديب الظلمة ودروب الحيرة ، يحسب نفسه يقظا منتبها ورأسه مثقلة بالطلاسم ، لا يدرك صوابا ، ولا يعرف طريقا يتجه إليه ، وذلك من قصيدة « تفعيلة على البحر الطويل » للشاعر عبد المنعم عواد يوسف ، ومما جاء فيها(٢) :

---

(١) أصوات أبريل ١٩٨٥ م : ص : ٩ .

(٢) إبداع ذو الحجة سنة ١٤٠٦ هـ ص ٤٠

زمانى يحاورنى لأدرك سره
فلا هو مفهوم ، ولا أنا فاهم
وأقطع دربى فى سراديب ظلمة
فتثقل رأسى حيرة وطلاسم
وأحسب نفسى — أفتح العين — صاحيا
وقوم ثقيل فوق رأسى جاثم

ومن الزمن اللغز إلى العصر الذى يفرض الأحزان والآلام على الناس وذلك فى قصيدة « أشعار العهد القديم » للشاعر عبد الله السيد شرف ، ومما جاء فيها : (١)

هذا العصر
جعل الحزن بقلب الكل
كل هوية
تحمل دوما لون الحزن
قبل الاســـم
كل الناس هنا بكاء
أو متباكى
وأنا الآخر
قد ألقيت بطرف شباكى
كنت ضحوكا
ثم رجعت أبكى قهرا

---

(١) أصوات أبريل ١٩٨٤ ص : ٧

والنماذج الدالة على هذا التوجه لا حصر لها فى ديوان الشعر الحر .

ومما يحز فى النفس ، ويدعو إلى الألم ، أن يتوجه الشعر الحر دون استحياء إلى ما يوحى بالاستخفاف بروح الدين وفقدان الوازع الخلقى عند قائله ، وذلك على نحو ما نرى فى قصيدة بعنوان « خفقة الطين » للشاعر بلند الحيدرى ، حيث المجاهرة الصريحة بالحب للآثام والتعلق بها دون رغبة فى الجنة أو رهبة من سعير النار ، ولم الرغبة أو الرهبة مادام الإنسان يعيش فى جنات اللهو تعويضا لشباب حزين يائس ؟ ومما جاء فيها على لسان الشاعر : (١)

نزت الآثام فى عمرى فثورى
وارقصى نشوى على قلبى الكبير
مضغ الحزن شبابى يافعا
فامضغى بالشهوة القصوى مصيرى
لست أهوى جنة تطربنى
طالما أبصرت جنات شعورى
لا ولا أخشى سعيرا خالدا
فلكم أدخلنى الدهر سعيرى

وفى قصيدة « الصخرة » — لفدوى طوقان — صفات لكل من القضاء والقدر والزمن يقف الإنسان أمامها على استحياء وخجل ، فهى ترى القضاء سجانا ، والقدر عتيا ، والزمان غبيا ، ومما جاء فيها :(٢)

---

(١) تاريخ الشعر العربى الحديث / أحمد قبش : ص٦٨١

(٢) فدوى طوقان والشعر الأردنى المعاصر / شاكر النابلسى ص ٩٠ وما بعدها .

سأظل وحـــدى
فى أنطواء
مادام سجانى القضاء
دعـــتى
سأبقى هكذا

ومما جاء فيها أيضا :

الصخرة السوداء شدت فوق صدرى
بسلاسل القدر العتى
بسلاسل الزمن الغبي
أنظر إليها كيف تطحن تحتها
ثمرى وزهـــرى
تجتث مع الأيام ذاتى
سحقت مع الدنيا حياتى

وليت الأمر وقف عند حد الاستخفاف بروح الدين وفضائله على نحو مانرى فى النموذجين السابقين ، وإنما تجاوزه إلى الذكر المباشر للفظ الجلاله « الله » ذكرا لا يليق بقدسيته ومكانته عند أصحاب الفطرة السليمة والعقيدة الصحيحة ، ولولا أن طبيعة البحث تتطلب ذكر نماذج — على سبيل المثال — لما أحببت أن أقدم بين يدى القارىء مقطعا يقول (١) :

سمعت صرخة

---

(١) أدب ونقد يونيو ويوليو سنة ١٩٨٥م : ص ١٩

عرفت أن الله كان هاهنا
وأتى بأذنه
انحل كالغمام
إنى بأذنه أسرق بعض الريش
ألقف الحب الذى يندس
والحب الذى ينام
إنى بأذنه
أداول الكلام

ومثل هذه المباشرة نجدها كثيرا وذلك على نحو — ما عاتبت فدوى طوقان الخالق بعنف صادم لعقيدتها، وقد سبقها صلاح عبد الصبور حين أغلقت أمامه كل الأبواب ، ورأى نفسه ضريعة الإخفاق واللوعة ونسيت فدوى طوقان أن الله لا يسأل عما يفعل ، وربما أراد صلاح عبد الصبور « بالإله » حبيبته ، ولكنه يكون قد خرج من الخرق فى التفكير إلى الخرق فى المجاز والتشبيه ، وكلاهما يقذف موقفا يقرب من مواقف البياتى حين تساءل فى « سفر الفقر والثورة » عن حكمة معاقبته ، ولكنه كان تساؤلا يبدو لنا غريبا ، ولا يليق بمن يؤمن أن لله فى خلقه شئون (١) .

لكن المتأمل لما كتب عن أدب الغرب ومدارسه من قبل نقادنا وباحثينا أو ما كان مترجما من أدبهم بلغتنا يدرك أن هذه التوجهات دخيلة على شعرنا العربى ، ولا تمثل سوى أصداء بالية لتوجهات الأدب الغربى وانعكاسات صدئة للافتتان بكل ماهو غربى دون نظر إلى ما يترتب على ذلك من نفع أو ضر على نحو ماسنبين .

---

(١) المنهل ربيع الثانى سنة ١٤٠٤ هـ : صـ ١١٧

فها هو ذا البياتى — أحد رواد الشعر الحر — يصرح بأن التنافس فى خلق أشكال متنوعة للشعر الحر ما هو إلا انقياد للترجمات الشعرية من آداب الأمم الأخرى وذلك فى قوله :(١)

إننى أتساءل ما الذى حققه هؤلاء - أى شعراء الشعر الحر - على صعيد الأشكال الشعرية خاصة الشعراء الذين جاءوا بعد شعر الرواد، لقد غرق معظمهم فى الرمال المتحركة للترجمات الشعرية من آداب الأمم الأخرى واستعاروا لغتها وأزياءها وبيانها وبديعها .

ويقول د / على عشرى زايد : (٢) - وهو أحد الذين أولوا حركة الشعر الحر نصيبا لا يستهان به من الإهتمام - وقد تأثر بعض شعرائنا المحدثين الذين شاع فى شعرهم هذا اللون من الغموض ، باتجاهات الأدب الغربى ، مغفلين الفارق الكبير بين طبيعة القارىء العربى الذى يكتبون وطبيعة القارىء الأوربى الذى خاطبته هذه الاتجاهات ، وطبيعة الموروث الأدبى والفنى الذى نشأ عليه كل من القارئين .

وإذا كان الشعر الحر قد توجه إلى قيثارة ضبابية يعزف عليها ألحان الضياع والتمزق النفسى والسير فى دروب الظلمة ونحو ذلك من تجليات تشاؤمية ، فهو ليس بدعا فى ذلك وإنما مهدت له الرومانتيكية الفرنسية منذ القرن الثامن عشر هذا التوجه ، حيث كانت - المرارة والقتامة ومذاق التراب والخراب كلها من التجارب الأساسية التى تفرض نفسها على الرومانتيكى كما ينميها هو فى نفسه(٣) .

---

(١) قضا الشعر الحديث / جهاد فاضل : ص ٣١١

(٢) عن بناء القصدة العربية الحديثة د / على عشرى زايد : ص ٩٠

(٣) ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر د/عبدالغفار مكاوى : جـ١ ص ٥٣

ذلك لأن الرومانتيكيين كانوا يرون أنهم يعيشون نهاية الزمن ، ولهذا سيطر على أدبهم لون من الإحساس الحزين الرقيق الذى يعرو النفس حين تشاهد شمس الحضارة الآفلة ترسل ألوانها الجميلة الشاحبة (١)

وها هو ذا جزء من قصيدة بعنوان « غروب شمس الرومانتيكية » للشاعر - بودلير - وكان قد كتبها فى عام ١٨٦٠م لنرى مدى التشابه فى الصور والألوان بين هذا الجزء وماذكرته من نماذج تشاؤمية ، يقول بودلير :(٢)

هلموا بنا نجرى نحو الأفق ، تأخر الوقت ، فلنسرع الجرى .

فقد نلتقط على الأقل شعاعا مائلا !

لكن عبثا أسعى وراء « الإله » الذى يتوارى ؛

الليل الذى لايقاوم ينشر سلطانه ،

أسود ، رطبا ، فظيعا ، وشديد الرعب ،

رائحة القبر تسبح فى الظلمات ،

وقدمى المتوجسة تدوس على حافة المستنقع .

على الضفادع والقواقع الباردة ،

أما ظاهرة الاستخفاف بروح الدين وفقدان الوازع الخلقى ، فهى تمثل أيضا توجها معروفا من توجهات الأدب الغربى ، فمنذ « نيتشه » وتساؤلاته الإلحادية والشعر الغربى يموج بألفاظ وتصورات لا تليق بالذات العلية لدرجة أن الناقد الأمريكى

(١ ، ٢) المرجع نفسه ص ٧١

فريد ريك هو ثمان » يضيق بهذا الأدب الحديث الذى يتعدى على ذات الله، وينسى أن هناك إنهياراً أخلقيا عاما يتمثل فى رفض الحقائق الغيبية وبعض القيم الدينية ، وأن بعض النقاد من أمثال «ناتان سكوت» و«ت — إس — اليوت» و«موريس فريدمان» يتصدون لهذه الظاهرة محاولين بيان أهمية العلاقة بين الدين والأدب »(١) .

ولعله يكون قد اتضح الآن ما عليه الشعر الحر من توجهات استمدت جذورها من توجهات الشعر الغربى استمدادا عرضه للهزال والتصعلك — إن صح هذا التعبير — وفقدان الهوية أمام الشعر الغربى والمتلقى العربى على حد سواء .

ذلك لأن توجهات الشعر الغربى تعد نتاجا حتميا للمؤثرات التاريخية والحضارية على الوجدان الغربى ، وصـــدى طبيعيا لمكونات مشاعره وأحاسيسه ، لأن الحضارة التى يعيشها الغربى الآن ضاعفت من فقدان ثقته فى السماء والأرض معاً ، حيث ضعف الوازع الدينى فى نفسه بعد ما تغلب التقدم العلمى والفكرى فى عصر النهضة على هيمنة الكنيسة ورقابتها الصارمة على تحرر الفكر ، ولم يكد يطمئن إلى العلم وقدرته على تحقيق السعادة له فى الأرض باسم الحضارة والتقدم حتى فوجىء بما رآه من ويلات وحروب مدمرة هيأ لها العلم باسم الحضارة والتقدم أيضاً .

ومن هذا المنطلق وجد نفسه — على صخرة الوجود وحيداً لا يربطه بالسماء إيمان ولا بالحضارة ثقة بها ، ولم يجد نفسه فى زحمة الحياة إلا مخلوقا ضائعاً بلاعزاء يومىء إليه فى السماء أو فى الأرض ولا وشيجة تربطه بغيره فى ضجيج المدنية وزحامها(٢) .

---

(١) المنهل ربيع الثانى سنة ١٤٠٤ هـ : ص١١٧

(٢) مواقف فى الأدب والنقد د/عبد الجبار المطلبى ص:٤٣

لهذا لم يكن بدعا أن يتوجه شعرهم إلى ألوان متباينة من الغموض والتشاؤم، ويتضمن كثيراً من صور الاستهتار والتمرد على تعاليم ديانتهم ومعتقداتهم.

وهذا بخلاف العربي الذي من الله عليه ببقعة مباركة من أرضه أقيم فيها بيته ليكون أمنا وأمانا لكل من تهوى إليه نفسه وانطلقت منها رسالة الإسلام دينا قيما لجميع البشر لا يعرف تعصبا ولا هيمنة، وإنما يدعو إلى إعمال العقل، وتحرير الفكر، ونشر المودة بين الأفراد والجماعات، وإقامة حياة تتكافأ فيها البواعث المادية مع الإشراقات الروحية، فلا غموض ولا تشاؤم، ولا عبث ولا استهتار.

ولهذا لم يكن هناك أدنى مسوغ لتلك التوجهات الوافدة التي فرضت على الشعر عزلة قاسية. وأقامت حاجزاً منيعا بينه وبين المتلقين وذلك منذ وقت مبكر من قيام هذه الحركة وقبل أن يتسع الخرق فيها على الراقع.

وها هو ذا صلاح عبد الصبور يصرح بهذه العزلة إلا أنه يردها إلى كسل القارىء وعجزه عن المغامرة لارتياد ساحة الشعر فيقول من قصيدة بعنوان «رحلة في الليل»(١)

في آخر المساء يمتلىء الوساد بالورق
كوجه فارميت طلاسم الخطوط
وينضح الجبين بالعرق
ويلتوي الدخان أخطبوط
في آخر المساء عاد السندباد
ليرسي السفين

---

(١) ديوان الناس في بلادي ص ٤٠ وما بعدها

وفى الصباح يعقد الندمان مجلس الندم
ليسمعوا حكاية الضياع فى بحر العدم

السندباد :

« لا تحك الصديق عن مخاطر الطريق »
« إن قلت للصاحى : انتشيت ، قال : كيف ؟ »
« السندباد كالإعصار .. إن يهدأ نمت »

الندامى :

هذا محال سندباد أن تجوب فى البلاد
إنا هنا تضاجع النساء
ونغرس الكروم
ونعصر النبيذ للشتاء
ونقرأ الكتاب فى الصباح والمساء
وعندما تعود . . نعدو نحو مجلس الندم
تحكى لنا حكاية الضياع فى بحر العدم

فالسندباد فى قول « صلاح عبدالصبور » ليس سوى الشاعر ذاته الذى يعانى تجربة الإبداع بين أكداس الورق التى تملأ الوساد وبين طلاسم الخطوط المتشابهة المختلطة والدخان الملتوى حوله كأخطبوط والعرق الناضح على جبينه من المعاناة والجهد .

أما الندمان فليسوا سوى هؤلاء القراء الكسالى العزوفين عن المغامرة القانعين بملذاتهم الحسية الخاصة السطحية وانتظار السندباد حتى يعود إليهم بتيار مغامراته الشعرية المضيئة ، ولكن السندباد يدرك أنهم لن يستطيعوا

أبداً أن يستمتعوا بلذة هذه الثمار التى لم يشاركوا فى اقتطافها ، ومع وضوح هذا اليقين لدى الشاعر السندباد فإنه لا يستطيع أن يكف عن المغامرة والإبداع ، فالابداع هو تحقيق وجوده ، والسندباد إن كف عن المغامرة مات ، « السندباد كالإعصار .. إن يهدأ يمت »(١) .

ومن الإنصاف ألا يتهم المتلقون بالكسل والعجز عن المغامرة لفهم الشعر ، ولا ندرى منذ متى . . وقد أصبح فهم الشعر يتطلب المغامرة من المتلقى . ؟

وهل يغامر المتلقى من أجل فهم الشعر أم من أجل لقمة العيش والتغلب على الخضم الهائل من موج المادة المتلاطم فى محيط حياتنا ؟

أقول : ما عرفنا الشعر إلا لغة للقلوب ومرآة للنفوس . يعبر عن الخلجات الغامضة ، ويكشف عن الأحاسيس الدفينة ، يخاطب الوجدان والعاطفة ، وينفذ إلى أعمق شىء فى الإنسان بأداء متميز وأسلوب يجمع بين السهولة غير المبتذلة والقيم الفنية والتعبيرية الخلاقة التى تحفظ للشعر مكانته فى دنيا الفن الرفيع .

ومما تجدر الإشارة إليه أن صلاح عبد الصبور كان متواضعا لين الجانب فى إتهامه للقراء والمتلقين إذا ما نظرنا إلى ما دخلوا ميدان هذه الحركة الشعرية بجوازات سفر مزيفة — وهم كثر — حيث أخذوا يرمون القراء والمتلقين بالجهل والتخلف حضاريا وثقافيا .

وها هو ذا أحد الشعراء السعوديين المعاصرين يقول فى هذا الصدد(٢) :

---

(١) أنظر « عن بناء القصيدة العربية الحديثة : ص ١٧

(٢) الفيصل ربيع الثانى سنة ١٤٠٦ هـ ص ٣٣

تابط المجددون المعميات ، وكتبوا مالا نفهم عن تحولات الليل والنهار فى أقاليم الهجرة من الداخل الذى يأتى ولا يأتى ، وعندما نظرنا إليهم باستغراب أخبرونا أننا أغبياء لا نحسن الوصول إلى مغاليق القصيدة الحديثة .

ويعلل د/على عشرى زايد ظاهرة الانصراف عن الشعر الحر تعليلا فيه الكثير من الإنصاف للقراء والمتلقين إذ نراه يقول(١) :

وقد يكون لقارئ القصيدة العربية الحديثة بعض العذر ، خصوصا ذلك القارىء الذى تعود أن تقدم له القصيدة عالما مألوفا له ، قد سبق له التعرف على كائناته عشرات المرات حتى باتت مألوفة لديه لا تثير دهشته ، فهل هذا القارئ غالبا ما يصادف فى القصيدة الحديثة عالما غريبا لم يسبق له أن تعرف على كائناته . . ولا شك أن هذا العالم الغريب غير المألوف للقارئ من ناحية ، والأدوات الفنية الغريبة التى يستخدمها الشاعر فى بناء قصيدته من ناحية أخرى يمثلان أبرز مكونات هذا الحاجز الذى يحول بين القارىء العربى والقصيدة الحديثة .

ولهذا فلقد كان من الكياسة والحكمة ألا تصدم مشاعر المتلقين وأحاسيسهم صدمتين متزامنتين ، تمثلت أحداهما فى القالب الشعرى المتوارث وما كان من تمرد عليه وذلك باسم الرغبة فى التجديد .

وتمثلت الأخرى فى تلك التوجهات الشعرية التى تتنافى مع طبيعة المتلقى العربى وموروثه الحضارى والدينى .

وإذا كان من الصعوبة بمكان أن يدعى إلى الالتزام بالقالب الشعرى

---

(١) عن بناء القصيدة الحديثة ص ٣٠

المتوارث ودحض ما وجه إليه من ادعاءات وافتراءات بما يؤكد قدرته على إستلهام أدق التجارب الإنسانية والحضارية والتعبير عنها حتى لا يتوارى الكثيرون من دنيا الشعراء عجزا وخجلا ، وحتى لا نفقد لونا من ألوان التعبير الأدبى لا يستهان به إذا ما توجه التوجه الملائم لذوق المتلقى وموروثه .

اقول : إذا كان الأمر كذلك فإنه يتعين على الشعر المعاصر — أيا كان حظه من القالب الشعرى المتواريث — إذا ما أراد التخلص من عزلة الأسر ، والتحول إلى عصا سحرية تلقف كثيراً من معاناة القراء والمتلقين أن يسير على هدى من توجهات الشعر العربى على إمتداد عصوره ، حيث كانت مرآة لما يدور فى نفوس المتلقين وما يختلج فى صدورهم ، ويتوائم مع طبيعتهم وتطلعاتهم موائمة — تحقق التلاحم بينه وبين المتلقين .

لذا لم يكن عجبا أن كانت القبيلة فى العصر الجاهلى تحتفل بنبوغ شعرائها ، وتتقبل التهنئة فيهم ، وتعدهم زخيرة عزة وقوة لها ، وإذا لم ينبغ فيها شاعر التمست لها شاعراً تلحقه بها ، وتنسبه إليها ، وذلك — كما حدث لقيس حين ألحقت بها أشجع السلمى ، وكانت قبل ذلك قد أنكرته(١) .

ولم لا . . وقد كان من أهم التوجهات الشعرية التعبير عما يشغل القبيلة — وقد كانت تمثل مجتمعا مستقلا له طابعه المميز فى كثير من شئونه — من الاشادة بأمجادها ، والتنويه بمفاخرها ، وآثارها الباقية .

ومما هو جدير بالذكر أن الشعر الجاهلى لم يخل من التوجهات

---

(١) مهذب الأغانى حـ ٨ ص ٢١٨ .

الإنسانية التى أثرت الوجدان العربى — آنذاك — وذلك فى غياب العقيدة الصحيحة بما يعصمه من الانحدار الكامل فى مهاوى الشر والحق .

وذلك على نحو قول عمرو بن الأهتم — على سبيل المثال — داعيا إلى حسن التعامل مع الجار وإكرام الضيف — فى صورة وصية لابنه — دون نظر إلى بواعث طارئة ، و دوافع وضيعة تزين التخلى عن مثل هذين الخلقين الحميدين(١) .

لقد أوصيت ربعى بن عمرو
إذا حزبت عشيرتك الأمور
بأن لا تفسدن ما قد سعينا وحفظ السورة العليا كبير
وجارى لاتهيضه وضيفى إذا أنسى وراء البيت كور
اصبه بالكرامة واحتفظه علك فإن منطقه يسير

وبظهور الإسلام كان أهم توجه للشعر يعد ترجمة صادقة لنبض الأرض وإرادة السماء ، حيث أبى المشركون إلا أن يجعلوا من الشعر وسيلة للنيل من رسول الله — ﷺ — ودعوته — وكانوا لا يدخرون وسعا فى تلمس الوسائل لتحقيق هذا الغرض الدنىء — فما كان من رسول الله — ﷺ — إلا أن جعل من الشعر الإسلامى جبهة للتصدى ورحض مايتضمنه شعر المشركين من ادعاءات وافتراءات

وكان قد اشتهر ثلاثة من شعراء المسلمين — آنذاك — وهم . حسان ابن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وكان رسول الله — ﷺ — قد أمرهم بالتصدى لما جاء من افتراءات فى شعر الشعراء

---

(١) المفضليات القصيدة ١٢٣ : ص ٤١٠ وما بعدها

المشركين ، ويروى أنه قال : أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى(١) .

وكثيرا ما كانت السيدة عائشة رضى الله عنها — تحب الاستماع إلى شعر حسان بن ثابت فى الرد على شعراء المشركين ، وترجو لصاحبه الجنة ، وقد روى الطبرى فى تفسيره أن السيدة عائشة — رضى الله عنها — قالت : ما سمعت بشىء من شعر حسان ، ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة قوله لأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب — وكان من أشد شعراء قريش حقدا على الإسلام والمسلمين :

هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
فإن أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاء
أتشتمه ولست له بكفء ... فشر كما لخير كما الفداء
لسانى صارم لا عيب فيه ... وبحرى ما تكدره الدلاء

هذا فضلا عن توجه الشعر إلى حركة الفتوح الإسلامية مسجلا لها ومخلدا لوقائعها وما كان لها من آثار متشعبة على مستوى الفرد والجماعة ، وذلك فى عهد رسول الله — ﷺ — والخلفاء الراشدين .

وشىء طبعى أن تطغو على ساحة المجتمع الإسلامى تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية بعد أن بويع لمعاوية بن أبى سفيان بالخلافة التى صارت على يديه ملكا عضودا وسلطانا وراثيا ، وقد كانت قبلا تقوم على مبدأ الشورى والالتزام بأحكام الإسلام وتعاليمه السمحة .

---

(١) الأغانى ، دار الكتب ، حـ٤ صـ١٣٦

ومما يدعو إلى الإعجاب بشعرنا العربى أنه واكب هذه التحولات واستوعبها ، ورسم لها صورا متجددة بإيحاءاتها الخلاقة ، وخيالها المبدع اللاقط الذى كشف لنا عما كانت عليه الأحزاب السياسية من أفكار متباينة واتجاهات متضاربة شأنها فى ذلك شأن الفرق الدينية آنذاك ، كما كشف لنا أيضا عما كان من أثر اختلاط العرب بغيرهم حينما انطلقوا من الجزيرة ومصروا الأمصار ونزلوا فى بلدان الأمم المفتوحة وامتلأت حجورهم بأموال الفيء وغنائم الحرب .

وعلى امتداد العصر العباسى كانت أكثر توجهات الشعر تدور حول تحديد ملامح المجتمع وتصوير أدق الأمور الحياتية ، سواء كان ذلك فى مجال السياسة وما طرأ عليها من ظروف ونظم مختلفة لاختلاف مشارب الحكام ودور العنصر الأجنبى فى ذلك أو مجال الناحية الاجتماعية وما كان فيها من ترف ومجون وزهد وتقوى ، وكذلك الحياة العقلية وما نجم عن امتزاج الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية المتعددة .

وفى العصر الحديث وجدت توجهات شعرية لشعراء نابهين أذكت الوجدان العربى ، وصورت ما يشغل النفس والحس وكثيرا ما تضمن هذا التصوير رؤى شعرية ذات أبعاد تدفع بالمتلقين إلى التطلعات السامية والأهداف النبيلة .

وها هو ذا شعر البارودى — على سبيل المثال — يصور ما تعانى منه الجماهير المصرية من فساد الحكام وهيمنة المستعمر ، ويدعو إلى الثورة والمواجهة بغية ترويح النفوس ، وترويض المخادعين نحو الولاء لترابهم وتراثهم ، وقد جعل من تصويره لمعالم العمران فى القاهرة والريف وآثار النعيم وبهجة الرياض والمروج وما تتمتع به من طيور وادعة وأمطار خفيفة ونسائم عليلة مرشدا سياحيا لمن يريد التعريف على معالم مصر طبيعة وعمرانا وزراعة وآثارا ، ويكفى لمن يرد مصر بعينيه أن يراها فى شعر البارودى .

والقارىء لشعر البارودى يجد أنه استوعب كثيرا من أدق العيوب الاجتماعية مصورا لها وكاشفا عن آثارها المهلكة ، مما يكشف عن نزعة إصلاحية تمكنت من صاحبه دون نظر إلى مكانته فى المجتمع وما كان يتمتع به من وجاهة وسيادة لفترة من حياته ليست بالقصيرة ، وهذا شأن الشاعرية الأصيلة فى التوجه نحو أحاسيس المتلقين ومشاعرهم واستيعاب ما يشغل الحياة والأحياء من حولها فى صور شعرية زاهية .

ويعلل الباحث/ محمد عبد الله مليبارى ترديد المتلقين لشعر بعض الشعراء المحدثين وتعلقهم به تعليلا واعيا لما فيقول :

أما بالنسبة لشعر شوقى وحافظ والشابى وأضرابهم ، فقد كان للانبعاثة العربية تأثيرها فى نقل شعر هؤلاء إلى ألسنة المرددين والمتلقين له ، لأن العصر الذى عاشه هذا الشعر كان عصر انبعاثة أذكت فى النفس العربية مشاعر التماذج الذاتى بين كل الطبقات ، فكان ترديد الشعر الذى يحقق هذا التماذج فى أى قضية من قضايا الانبعاثة العربية تجسيدا تعبيريا لهذا التماذج

قم للمعلم وفه التبجيـــلا كاد المعلم أن يكون رسولا

بيت تردده دائما لأنه جاء فى وقت انبعاثة التعليم على يد المعلم العربى

والأم مدرسة إذا أعـــددتها
أعـــددت شعبا طيب الأعراق

بيت آخر نردده دائما ، لأنه تردد كثيرا فى أوساط متلقيه الذين كانوا يتطلعون إلى نهضة نسوية .

وأبيات من شعر الشابى تعيش فى الأرساط والمجالس لأنها جاءت عن طريق متلقيها الثائرين فى وقت أحس فيه الوجدان العربى بالثورة لترسيخ ذاته التى طمرتها الحركات الاستعمارية .

إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلى ولا بد للقيد أن ينكسر(١)

وبون شاسع بين توجهات وافدة أدت إلى عزل الشعر وانصراف المتلقين عنه، وتوجهات بيئية واعية أدت إلى إيجاد الوشائج القوية والصلات النفسيه بين الشعر والمتلقى على امتداد هذه العصور، فكان للشعر سلطانه على النفوس وتأثيره فى القلوب، يستوى فى ذلك الأفراد والجماعات له يطربون ومنه يتألمون وله يستجيبون.

وديوان الشعر العربى منذ العصر الجاهلى وإلى العصر الحديث، وأمهات كتب الأدب والتاريخ أيضا فيها من الأشعار والأخبار ما يؤكد ذلك ويجعله من المسلمات التى لا تقبل سوى التصديق بها، وسوف نكتفى هنا بإيراد بعض النماذج التى تبين لنا ذلك.

فها هو ذا الحارث بن ورقاء الأسدى يغير على عشيرة زهير بن أبى سلمى، وكان فيما استاق إبلا لزهير وغلاما، فنظم زهير شعرا يتوعده فيه بالهجاء المقذع إن لم يرد إليه ما سلبه، ففزع الحارث ورد إليه ما سلبه وكان مما قاله زهير:

تعلمن ها — لعمر الله — وذا قسما
فاقدر بذرعك وانظر أين تنسلك؟
لئن حللت بجوفى بنى أسد
فى دين عمرو وحالت بيننا فدك

---

(١) المنهل / شعبان — رمضان سنة ١٤٠٤ هـ ص ٦٦

ليأتينك منى منطق قـــــذع
باق كما دنس القبطية الودك(١)

وكان للمحلق الكلابى ثلاث بنات لم يزوجهن ، وكان معسرا ، وجاء « الأعشى » يقصد مكة فسمعت امرأة المحلق به ، فحثت زوجها أن يدعوه للضيافة قبل سواه ويذبح له لأنه إذا قال شعراً شاع . فدعاه المحلق ونحر له ناقة وبالغت المرأة فى إكرامه وإكرام رفاقه وكان فى عصابة قيسية ، فلما جرى الشراب فى عروقه سأل المحلق عن عياله فشكا له حال بناته ، ولما وافى سوق عكاظ أنشد قصيدة مطلعها :

أرقت وما هـــــذا السهاد المؤرق
وما بى من سقم وما بى معشق

ثم تخلص إلى مدح المحلق وإطرائه فى السخا. وكرم الأخلاق والناس يسمعون ، فلما فرغ من الإنشاد أنسل الناس إلى المحلق يهنئونه وهرع الأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه يخطبون بناته، فلم تمس منهن واحدة إلا فى عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف(٢) .

وعرضت قتيلة بنت النضر بن الحارث للنبى — ﷺ — وهو يطوف وكان قد قتل أباها ، فاستوقفته ، وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه ، وأنشدته أبياتا مطلعها :

يا راكبا إن الأثيـــــل مظنة
من صبح خامسة وأنت موفق

---

(١) ديوان زهير / طبعة دار الكتب : ص ١٨٣

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية / جرجى زيدان ج ١ ص ٨٩

إلى أن قالت:

أحمد ها أنت نجـــــل نجيبة
من قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت ورعما
من الفتى وهو المغيظ المحنق

والنضر أقرب من قتلت وسيلة
وأحقهم إن كان عتق يعتق

فقال — صلى الله عليه وسلم — لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته(١).

ويروى أن أعرابياً وقف على « على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فقال : إن لى إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك ، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك ، وإن أنت لم تقضها حمدت الله وعذرتك، فقال له على : خط حاجتك فى الأرض فإنى أرى الضر عليك ، فكتب الأعرابى على الأرض « إنى فقير » فقال على : يا قنبر . إدفع إليه حلتى الفلانية ، فلما أخذها مثل بين يديه فقال :

كسوتنى حلة تبـــــلى محاسنها
فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا

إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه
كالغيث يجنى نداه السهل والجبلا

لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به
فكل عبـــد سيجزى بالذى فعلا

---

(١) المرجع نفسه : حـ ١ ص ١٩٠ وما بعدها .

فقال على : ياقنبر . اعطه خمسين دينـــاراً . أما الحلة فلمسألتك ، وأما الدنانير فلأدبك . سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : انزلوا الناس منازلهم(١) .

ومما قاله معاوية بن أبى سفيان « مؤسس دولة بنى أمية » : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر دأبكم ، فقد رأيتنى ليلة الهرير - بصفين - وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب لشدة البلوى ، فما حملنى على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح(٢)

وهاهم أولاء بنو نمير يتجرعون مرارة الخزى وذل العار بسبب بيت قاله « جرير » فى هجاء شاعرهم « الراعى النميرى » وهذا البيت هو :

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

حيث جعل من النميريين أضحوكة بين القبائل ، وأعجوبة للسخرية بين العرب(٣) .

وفى عصر بنى العباس كان العجب العجاب من نفوذ الشعر - فكم من شعر وضع السيف فى الرقاب كما فعل شعر « سديف » بالسفاح فحمله على قتل بنى أمية ، وكم من شعر رفع السيف عن الرقاب كما فعل « مالك بن طوق ؟

---

(١) العمدة / لابن رشيق جـ ١ ص ٣٨ وما بعدها .
(٢) المرجع نفسه جـ ١ ص ٢١
(٣) رحلة الشعر د / مصطفى الشكعة : ص ٦٢

وقد حكم عليه بالإعدام فقال للرشيد شعرا فعفا عنه ، وقد رفع الرشيد السيف عن ربيعة وأحسن إليهم بعد سماعه أبياتاً قالها « منصور النمرى » استعطفه بها ، فأمر بكف السيف عن ربيعة لأجله(١) .

وها هو ذا البارودى - رائد الشعر الحديث - لا يشغله فى منفاه سوى التوفر على شعره صقلا وتجويداً وتدوينا غاضا بذلك النظر فيما كان له من دور فى مقاومة الاستبداد والمستبدين بسيفه قبل أن يكون بلسانه ، وما أظهره من بطولات حربية ليس فى داخل مصر فحسب وإنما فى خارجها أيضا ، وما تقلب فيه من مناصب ذات خطر وشأن على المستويين المصرى والدولى ، وذلك لما فى شعره من توجهات تحمل القراء والمتلقين إلى الإقبال عليه ، وتخليد صاحبه .

ويلوح لى أن لو شاعرا من شعرائنا المعاصرين توافر له ماتوافر للبارودى من مآثر حميدة فى دنيا الوجاهة والزعامة أو بعضاً مما توافر له لما أولى شعره اهتماماً يذكر ولتحول إلى سيرته الذاتية يسجلها طمعاً فى تخليد ذكره ورغبة فى بقاء أثره .

وشىء طبعى أن يتحقق هذا التحول فى ظل طغيان التوجهات الشعرية الدخلية والتى أدت إلى أسر الشعر فى دواوينه أو بين دفتى بعض الكتب والمجلات لدراسته كظاهرة أدبية لها سماتها وخصائصها المميزة أو إرضاء لصاحبه من باب المجاملة أو التقرب إليه .

ولهذا فإن على شعرنا المعاصر إذا ما أراد تشييد جسور الود بينه وبين المتلقين ، أن يتوجه إلى الإنسان العربى مترجما عن تجاربه ومخففا من وقع

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية / جرجى زيدان جـ ٢ ص ٣٥٩

الأزمات المتلاحقة على وجدانه وذلك منذ أن تطلع إلى التخلص من التبعية للاستعمار وإيجاد حاضر مشرق لأمته .

هذا فضلا عما يعانى منه الإنسان فى كل بقاع الأرض من العيش فى عالم - تتحكم فيه «الآن» الآلات والساعات والمشروعات الكبرى والحروب والكوارث الجماعية وتحيله فى ظل الثورة الصناعية إلى كائن صغير ضئيل، إن أجهزته وآلاته تشهد على قوته وضعفه ، وتتوجه وتخلعه عن العرش فى آن واحد ، والنظريات الفلكية عن الانفجار الكونى وملياردات السنين الضوئيـــة ، وملايين النجوم والكواكب والأنظمة الشمسية الأخرى قد أشعرته بأنه ليس إلا صدفة عارضة حقيرة فى مجموع الكون اللانهائى(١).

وليس هناك من عاصم للإنسان بعامة والعربى بخاصة أمام تلك الأزمات المتلاحقة ، وعواصف الحضارة المادية المهلكة إلا أن يكون على وعى تام وتمثل حقيقى لما تتمتع به تلك العقيدة الإسلامية - والتى منحها الله لجميع البشر - من قيم روحية ومثل أخلاقية تدفعه إلى الصمود والتطلع إلى غد أكثر إشراقاً وتفاؤلا .

ومن هذا المنطلق فإن المتلقى بحاجة إلى شعر إسلامى أو على أقل تقدير إلى أن يكون التوجه الإسلامى للشعر من أهم التوجهات الشعرية ، وذلك للمساهمة فى حماية الشخصية العربية من أخطار الأزمات المحيطة بها ، وحماية الحضارة البشرية من جنون الحياة المادية الآثمة .

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد ، أنى لا أقصد بالتوجه الإسلامى للشعر أن يكون منظومة تحوى التشريع والأحكام والمواعظ، وإنما أقصد بالتوجه الإسلامى للشعر أن ينطلق على أساس من النظر والتأمل فى أزمات

---

(١) ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر د/ عبد الغفار مكاوى : جـ١ ص ٢٤٩

الإنسان العربى وتطلعاته من خلال تصور إسلامى يثير الدرب للشخصية العربية ، ويمكنها من بناء المجتمع الأمثل .

إننى لا أتصور كيف غاب عن شعرنا المعاصر التوجه إلى جوهر الدين وفضائله مع مافيه من شفاء ناجع لأمراض العصر وروافد خصبة للتجارب الشعرية النابضة بالحياة والحركة نحو السمو الإنسانى والحضارى .

وقد لفت ذلك انتباه الفلاسفة وكبار القادة العسكريين فى العالم من غير العرب والمسلمين وتمنوا قيام دول وحكومات على أساس من جوهر الدين الإسلامى ، وقدراته الروحية والمادية التى يحفظها لمجتمعه !

ومما قاله الفيلسوف الفرنسى « فولتير » فى كتاب — القاموس الفلسفى لفولتير طبعة عام ١٨٨٢ م — ردا على من اتهموا الإسلام بالمادية الجوفاء(١) .

أكرر لكم القول أيها الجهلة الأغبياء الذين غرر بهم جهلة أغبياء ، وأفهموكم أن عقيدة محمد — ﷺ — عقيدة لذات وجنس قوامها الشهوات المادية فى حين أنها أبعد ما تكون عن هذا الوصف ، لقد خدعتم فى هذه الناحية كما خدعتم فى نواحى أخرى عديدة . أيها الأساقفة والرهبان والقسس إذا فرض عليكم قانون يحرم تناول الطعام من الرابعة صباحا حتى العاشرة مساء فى شهر يوليو — أى فى وقدة الصيف — عندما يحل الصيام فى هذا الشهر ، إذا حرم عليكم لعب الميسر وإلا استهدفتم للعنة الله ، إذا حرم عليكم شرب الخمور والأنبذة تحت التهديد بالجزاء إذا فرض عليكم الحج فى صحراء خرقة ، إذا فرض عليكم إعطاء ٢ ½ ٪ من مالكم للفقراء ، إذا كنتم تتمتعون بزوجات تبلغ ثمانى عشرة زوجة أحيانا فجاء

---

(١) الدوحة جمادى الثانية سنة ١٤٠٤ هـ : ص ١٢

من يحزف أربع عشرة من هذا العدد ـ هل يمكنكم الادعاء مخلصين بأن هذه الشريعة شريعة لذات وجنس.

وها هو ذا نابليون يقول فى كتاب « نظرات سياسية لنابليون »(١) : إنه ـ أى نابليون ـ أجرى أحاديث مع علماء الأزهر أكدت له أن الإسلام عقيدة وجوهر ، وليس رسوما وظواهر وإنه يستطيع التدرج فى بناء الدولة التى يؤمن بها وإظهار صورتها الإسلاميه شيئا فشيئا وإنه كان يعد لاعتناقه الإسلام رسميا عندما يصل إلى بغداد ويعلن انفصاله عن عقيدته الأولى .

وقد يقال : إن المطالبة بمثل هـذا التوجه الإسلامى للشعر تذكرنا بما كان من صراع بين دعاة « الفن للفن » ودعاة « الفن للمجتمـــع والأخلاق » ، كما أنها تمثـل دعوة إلى الالتزام والوقوف بالشعر عند توجهات محددة .

وأقول : إن المطالبة بمثل هذا التوجه ليست نابعة من دعاوى غريبة وافدة ، ولا من تجاهل لطبيعة الفن الشعرى ، وإنما دعت إليها طبيعة العلاقة الواعية المدركة بين الشعر والمتلقى .

والمتأمل لما سبق من إشارات وجيزة لتوجهات الشعر العربى على امتداد عصوره الزاهية المشرقة يتبين له أن الشعر لم يتخل يوما عن استلهام النبض العام للمتلقين ، كما أنه لم يتخل أيضاً عما يزكى الوجدان العربى من القيم النبيلة . والمثل الأخلاقية العليا حتى فى العصر الجاهلى وقبل أن تشرق شمس الإسلام على قلوب الناس وأفئدتهم . هذا فضلا عما يتميز به الشعر آنذاك

---

(١) المصدر نفسه والصفحة .

من قيم فنية وروائع بيانية ، لأنه - كما يلوح لى - أن تحقق القيم الفنية والبيانية فى الشعر لاتتوقف على ماهية المضمون ، وإنما تتوف على اقتدار شاعرية الشاعر ، وجودة تمثلها للتجربة الشعرية ، ومدى أهمية الدوافع إلى الإفصاح عنها .

وهاهو ذا د/ طه حسين يحدد خاتمة الرقى الفنى « للمتنبي » بتركه لبلاط سيف الدولة الحمدانى فى حلب حيث يقول(١)

— ونحن بعد أن يترك « المتنبي » سيف الدولة نستطيع أن نلاحظ فى شعره هذا الشعور أو ذاك ، وهذا الحس أو ذاك ، ولكننا لن نستطيع أن نلاحظ أن شعره قد ارتقى أو نما أو تجاوز الطور الذى انتهى إليه فى حلب .

وماذلك إلا لما إكان عليه سيف الدولة من تشجيع للشعراء تمثل فى إغداق الهبات الثمينة والعطايا السخية عليهم .

ويروى أنه اجتمع على بابه من الأدباء والعلماء مالم يجتمع لغيره حتى أنه ضرب لهم دنانير خاصة بالصلات فى كل دينار منها عشرة مثاقيل(٢) . وكثيرا ماستدرج شعراء بعيدين عن بلاطه وأرسل إليهم الصلات الجزلة كما حدث مع — إسحاق الصابى حينما استمدحه سيف الدولة فأرسل إليه ثلاثة أبيات فبعث إليه فبعث سيف لدوولة ثلثمائة دينار (٣)

---

(١) مع المتنبى د/ طه حسين : ص ١٧٩
(٢) يتيمة الدهر للثعالبى : جـ ١ ص ٣٢
(٣) المرجع نفسه جـ ١ ص ١٥٤

هذا فضلا عما كان لسيف الدولة من شخصية قوية حازت إعجاب الكثيرين .

وهاهو ذا « المتنبي » يصرح بما كان لتشجيع الحمدانيين من أثر فعال فى شاعريته حينما عوتب فى آخر أيامه على تراجع شعره بقوله :

قد تجوزت قولى . وأعفيت طبعى ، واغتنمت الراحة منـــذ فارقت آل حمدان(١)

ومن هنا فإننا ننكر على الأصمعى ماادعاه من أن الشعر لا يقوى إلا فى الشر ، وذلك فى معرض تعليقه على شعر « حسان بن ثابت » فى الجاهلية والإسلام اذ نراه يقول (٢)

الشعر لكد بابه الشر فإذا دخل فى الخير ضعف . هذا « حسان » فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره .

ومـــا يدعو إلى الدهشة أن هناك من النقاد قدامى كانوا أو محدثين من يتوكأون على مقولة فالأصمعى . فى تناولهم للنص الشعرى مما دفع بعض الشعراء إلى أن يجعلوا مـا ادعاه « الأصمعى » شبحا مخيفا اذا ماحلقت شاعريتهم نحو معانى الخير والنبل غير مدركين لما تخلعه الشاعرية الأصيلة والدوافع القوية على النص ـ أيا كان المضمون ـ من القيم الفنية الرفيعة والوسائل التعبيرية الأخاذة .

بقى أن نقول فى خاتمة البحث : إنه إذا كانت المطالبة بتوجه إسلامى للشعر تمثل دعوة إلى الالتزام ، فما أحوجنا إلى هذا الالتزام لانه لايقف

---

(١) المرجع نفسة : جـ ١ ص ٣٦

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ ١ ، ٣٥

بالشعر عند توجهات محددة — كما يظن البعض — وإنما يفتح أمامه عالما لا محدودا من القيم الرفيعة والمثل الإنسانية يتوجه إليها ويشدو بها ، فتقر النفوس وتهدأ ، وتسعد الجماعات وتنشط نحو التطلع إلى حياة أفضل ومجتمع أمثل

دكتور

محمد كريم